العاطفة وارتباطها بالادب [1]

للاستاذ عبد الحميد حسن (٢)

قد علمنا أن الأدب هو نوع من الانتاج العقلى وانا إنما نحرص على الرائع منه وعلى ما له شأن فى حياة الفرد وخير الامة فالغاية من الادب أن يكون غذاء لخير ما فى الفرد من صفات ونزعات وحافزا الى عظيم الشيم ومعبرا تعبيرا صادقا عما يتجلى فى البيئة الطبيعية والاجتماعية . وأن الادب الذى نحرص عليه هو الذى ينفذ الى الحياة فيجلى أسرارها ويظهر محاسنها وينمى خير ما فيها ، وهو الذى يتصل بالرفيع السامى مما فى النفس الانسانية ، وهو الذى يمدنا بما يملأ قلوبنا اعجابا وروعة ويجد فيه الجيل الحاضر والاجيال القادمة غذاء عقليا يسمو بنفوسهم

فكيف نصل الى أن نجعل الوان الانتاج الادبى وموضوعاته محققة لهذه الاغراض السامية ؟

ليس لهذا الانتاج قوانين تحظر أنواعا وتبيح أخرى فان الانتاج الادبى لا رقيب عليه ، وكل أديب أو متأدب له أن يسطر ما يشاء ، وأن يغمر الصفحات بما يطيب له ، وأن يستثير من النزعات الانسانية ما يريد ، ومن ألوان العواطف ما يرى نفسه متجهة اليه . وقد يسير بعض الادباء فى اتجاه يدور حول أشخاصهم ونزعاتهم الفردية ولا يعنون الا بالاصغاء الى داعى ميولهم وأهوائهم ، ومنهم من يجعل همه اجتذاب الاعجاب واثارة الميول وارضاء الشوق ولو دعاه هذا الى ركوب الشطط فى ايقاظ الهابط من النزعات والاسراف فى الوان رخيصة من الادب لا تحقق الغاية التى ننشدها

ولسنا نملك أزاء هذا أن نحظر على الادباء أن يعرضوا ماشاءوا أو أن يسلكوا

---

(١) انظر القسم الاول من المقال فى العدد الثالث من السنة التاسعة .

من السبل ما يحبون ولكن الذى نستطيعه انما هو توجيه الاذهان الى مقومات الادب الصحيح ، والى العواطف ذات الشأن فى تنشيطه وتقويمه . وللنقاد فى هذا الميدان كبير الاثر اذا صحت همتهم وساروا الى القصد بخطوات سديدة

...

فاذا عسى أن تكون هذه العواطف ، وما الذى ينبغى أن يتوافر فيها من شروط ؟

لعلنا لا نعدو الجادة اذا اشرنا الى أنواع من العواطف نرى أن لها شأنا فى الادب وهى :

(١) العواطف الاجتماعية والقومية

(٢) العواطف الصادقة البعيدة عن التكلف والتصنع

(٣) العواطف المثقفة

(٤) العواطف ذات الشأن فى المثل العليا للحياة

(٥) العواطف الفردية التى تعبر عن قدر مشترك من الميول تجيش به نفوس الجميع من بنى الانسان

فهذه الانواع مما ينهض بالادب العاطفى ويكسبه قوة ويزيده خصبا ويجعل أثره شاملا

(١) فالعواطف الاجتماعية والقومية هى التى تخرج بانفعالات الاديب إلى ميدان واسع وتنشرها فى المجتمع وتتصل بالحياة فى شتى نواحيها وتتجه بآمال الشعب وميوله وجهة توحد غاياته العامة وتربط أواصره وتكون له كالمصابيح تهديه فى مجاهل الحياة ، وتجعل من الامة وحدة متماسكة ونفوسا مشتركة الاحساس تترنم بأنبل الغايات .

والاديب إذا حمل لواء هذا النوع من العواطف فأوضح مبهمة ، وتألف هائمة كان من أقوى بواعث الاصلاح والتوجيه إلى خير المقاصد ، فان هذه العواطف الاجتماعية والقومية هى القلب النابض للشعب والقوة الحافزة لافراده وهى دليل على وحدة الامة واكتمال مقوماتها .

ومجال هذا النوع فسيح فى الموضوعات الوطنية والحوادث التاريخية والنهضات القومية وكذلك فى حياة الريف وما فيها من ذكريات وفى آمال الشعب ومقاصده. ولعل هذا النوع من العواطف يتطلب النشاط فى أدبنا الحديث . فهو دعامة الاصلاح الاجتماعى وللادب القومى المرتكز على حياتنا ، النابع من البيئة التى ننسج منها نفوسنا وننقش على صفحاتها آثارنا

(٢) العواطف الصادقة :

ان من أهم صفات الادب أن يكون طبيعيا وأن يكون صادق الافصاح عن المعانى الحيوية دقيقا فى تصوير النزعات النفسية وما يتغلغل فى الصدر من ميول وآمال وأن يعرض لكل هذا فى غير مواربة أو تكلف .

أما الاديب الذى يلبس ثياب التصنع العاطفى فيجرى لسانه بما ليس فى جوانحه ويبدى سرورا لا ينطوى عليه قلبه ، أو يتكلف حزنا لا تجيش به نفسه ، فان أدبه لا يكون نابعا من القلب فلا يصادف مكانا من الوجدان .

على أننا لا نبغى أن نحصر العواطف فى دائرة ضيقة يعجز فيها الاديب عن تصور آلام غيره وآماله وعن تعرف ما تجيش به النفوس من ترح أو فرح ، فاننا نعتقد أنه يستطيع الاستعانة بخياله وبتجاربه على التعبير الصادق عن كل ذلك ، ولكننا نرى أن المعانى التى تصدر عن الطبع والخبرة أصدق افصاحا من التى تصدر عن التكلف وتنطوى على المحاكاة اللفظية الجوفاء .

وليس معنى هذا أن الأدب إذا خلا من العواطف التى تنبع من التجارب فقد خلا من عناصر القوة، فهناك منابع أخرى قد يرتكز الأدب عليها كالخيال والأسلوب والفكرة فيكون له من هذا قوة أو لون من الجمال .

(٣) العواطف المثقفة :

لسنا نشك فى أن للثقافة شأنا فى العواطف وفى الأدب العاطفى فان الثقافة ترشد العاطفة وتعصمها من الضلال والخلط إلى حد ما . والعاطفة إذا انبرت إلى ميدان العمل وهى عزلاء من التوجيه الفكرى والارشاد الثقافى كانت جوفاء

وأصبحت أشبه بالأنين المنبعث عن الأسى والحزن أو كالترنحات التى تعبر عن المرح ، أو كالسرور الذى لايعدو بهجة سطحية كابتهاج الصبى باجابة رغباته ، أو كالميول الهوجاء التى لاترتكز على تفكير وليس لها مرشد من ثقافة .

وأقرب العواطف إلى الضلال والهيام الشارد هى تلك العواطف التى يخلو ميدانها من الثقافة فتكون كالزهرة النابتة ، أو الأرض الجرز ، أوكصورة من الجص لطائر غرد ، أو كمعزف موسيقى اضطربت أوتاره وبعدت عن التجانس والانسجام .

(٤) العواطف الراقية التى تتجه الى المثل العليا :

وهذا النوع هو أرقى أنواع العواطف وأجداها وأعظمها أثرا فى تحقيق نبيل الغايات التى تطمح اليها الانسانية ، وتتجه إليها النفس فى مظاهرها الثلاثة ، وهى الحق والخير والجمال ، ولكل ناحية من هذه النواحى عواطف تتجه إليها .

(٥) العواطف الفردية التى تتجلى فى أغلب الاشخاص أو فيهم جميعا . وذلك أن العواطف الفردية عرضة لأن تكون محصورة فى نفس صاحبها لايشعر بها غيره ، ولكن التشابه فى ألوان الحياة ، والتجانس فى مظاهرها وأحوالها ، يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجا لعواطف غيره ، ولاسيما إذا كان صادق الحس صافى الوجدان . ولهذا يكون هذا النوع الفردى سهل الاستساغة سريع الاتصال بالنفوس .

وان قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النوع من العواطف تأثيرا وقوة وتجعل مانقرؤه له مما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصال بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا .

أما تلك العواطف الفردية التى لاتمثل إلا هياما سابحا ، أو حيرة شاردة ، فانها لاتحمل فى طياتها إلا خلجات مضطربة تتقاذفها أهواء النفس فتضل السبيل ولاتجد لها موئلا .

* * *

هذه بعض أنواع العواطف البارزة فى حياتنا وفى نفوسنا وهى من الألوان الوجدانية التى تمتزج بالأدب فتكون له كالماء للعود ، وكالشذى للزهرة ، وكالهواء للكائنات النامية ، وتسرى فى نواحى الفن الأدبى فتسمو به وتجعل له شأنا فى حياة الافراد وحياة الأمم .

وقد تكبت بعض العواطف أو المظاهر الوجدانية فى نفوسنا فيضيق بها الصدر أو تعجز النفس عن احتمالها أو الاضطلاع باعبائها فيفسح لها الأدب فى المجال ويكشف عنها القناع ويخرجها إلى جو الحرية فتحلق مطمئنة وتظلل الحياة بوارف من النعيم والعيش الرغد . وقد يتخذ الأديب إلى مكامن آلامنا فيضفى عليها من فنه ما يبعث فيها بهجة وأملا واطمئنانا وسكينة تشرق فى الصدر وتنير جوانب النفس .

وإن العواطف أشبه بآلات التصوير وزجاجها الحساس ، فهى تلتقط من ألوان الحياة ومظاهرها مايروقها ، ثم تعكس كل ذلك على صفحة النفس فتخرج صوراً تكون نماذج للحياة وما فيها ، وللنفوس وما يتغلغل فى نواحيها .

* * *

لعلنا بعد هذا قد أوضحنا مابين الأدب والعاطفة من صلة ، وأظهرنا أن هذه الصلة إذا ارتكزت على نبيل العواطف جعلت من الأدب منهلا عذبا ومعينا فياضا لخير الانسانية .

فلننظر إلى الأدب العربى على هذا الأساس لنرى حظه من العواطف ، وما الذى اشتمل عليه من ألوانها :

والأدب نوعان شعر ونثر وان حظ الشعر من العاطفة أوفى ، وحظ النثر من الفكرة أوفر ، فالعاطفة فى الشعر هى إحدى الدعامتين (والثانية هى الخيال) والفكرة عون لها . وعكس ذلك فى النثر . ولسنا نقصد بالشعر الكلام الموزون ، بل نقصد معناه الفنى ، ومن النثر على هذا ماهو شعر .

أما النثر فمنه طائفة من الرسائل فى أغراض شتى فى الشؤون الاجتماعية والحيوية

والسياسيه وفى النقد وفى الأحوال الخاصة كالشوق والاعتذار وغيرذلك. وهنالك أيضا المقامات ثم الأوصاف فى متنوع الأغراض كوصف مظاهر الطبيعة ووصف النفس ونزعاتها ، ولا تجد من هذه الأنواع فى النثر العربى إلا جانبا ضئيلا من العواطف . على أن ماظهر فيه منها إنما هو ذلك النوع من العواطف الفردية . وان النوع الذى تجلت فيه بعض مظاهر الوجدان يعد أقرب الى الأدب الموضوعى منه إلى الأدب الذاتى . أى أنه ينبع من الخارج ويمر بالمظاهر الخارجة عن النفس دون أن يمتزج بنفس الكاتب امتزاجا عميقا . وهو لذلك لايصور شخصية خاصة ولايصطبغ بلون من ألوان النفس الانسانية . ولعله إلى الصناعة اللفظية أقرب .

وأما الشعر فهو أوسع مجالا للعواطف .

ويقسم الافرنج الشعر الى قصصى وغنائى وتمثيلى ومنه الفكاهات والفاجعات . أما الشعر العربى فله فنون معروفة وهى الفخر والمدح والرثاء والهجاء والغزل والنسيب والوصف والاعتذار والمجون وغير ذلك .

وجمهرة الشعر العربى من النوع الغنائى الذى يترنم فيه الشاعر بالمفاخر والمآثر ويسرد صفات فردية لمن يمدحه أو يذمه . وإلى جانب هذا موجة جارفة من الحب الصناعى غمرت الشعر فى أغلب العصور العربية حتى أصبح من خصائص القصائد أن تفتتح بالغزل . وربما كان لهذا سبب ، وسنعرض للبحث فيه فى فرصة أخرى ، وموجة ثانية فى المدح استنفدت جهود معظم الشعراء . أما الاغراض الاجتماعية فلم يكن لها نصيب يستحق الذكر .

ونجد أمثلة للشعر الذى تبدو فيه العواطف فى الغزل وفى بكاء الاطلال وفى الرحيل والفراق وفى الاليف وخطاب الحمام وغير ذلك من العواطف الرقيقة الحزينة أو المتصلة بالالآم والآمال . وفى دواوين الشعراء وكتب الادب نماذج من ذلك .

وأنا نلاحظ بصفة عامة أن الشعر ينحو بما فيه من عواطف ناحية أقرب الى الصناعة وليست فى جملتها من العواطف المتغلغلة فى الحياة الاجتماعية .

* * *

هذا ، واذا أردنا أن نرسم للعاطفة طريقها القويم فى الادب وأن تغرى الادباء بالاهتمام بألوان خاصة من العواطف ، فان خير مايصل بنا إلى ذلك هو أن نستعيد إلى أذهاننا مايجب أن يحققه الادب من مقاصد وغايات :

نريد من الادب أن يصور النفس الانسانية تصويرا يشعرنا بتجربتها وخلجاتها حتى يكون ذلك مرآة لما فى نفوسنا وما يمكن أن يجول بخواطرنا .

نريد منه أن يرسم الاشياء من أصدق جهاتها وأوضح مظاهرها حتى نراها عن طريق عينى الاديب ونستجليها من طريق مشاعره وصائب نظره .

نريد منه أن يكون صورة للشخصيات التى تتفتح لها القلوب وتلقى لها النفوس بالزمام وتسير معها فى وديان ممتعة من الانسانية فى شتى مظاهرها وأحوالها .

نريد منه أن يكون خير معبر عما يحيط بنا من مظاهر طبيعية وأوضاع اجتماعية وعادات قومية حتى نجد صامت الحقائق ناطقا وكامن المعانى ظاهراً جليا .

نريد منه أن يكون عامل هداية للمثل العليا فى الحياة وهى : الحق والخير والجمال .

ونريد من الادب العاطفى أن يتجه الى النواحى التى أشرنا إليها ، وهى النواحى القومية أو الفردية التى تتجلى فى كل نفس ، لا العواطف الخاصة الهائمة .

هذا هو الذى نريد أن يتجه إليه أدبنا الحديث ، وهو الذى نريد أن نبحث عنه فى أدبنا القديم فى عصوره المختلفة ليتخذ منه المتعلمون والباحثون هاديا . ومن الوسائل التى تحقق هذا أن يكون الادب خير ترجمان للانسانيه وجليل صفاتها .

ولعل مااوضحنا من الوان العواطف يكون معوانا على بعض نواحى النقد الادبى وحافزاً على الاشادة بطائفة من فنون الادب نرقب لها النشاط .

ولعل هذا الجانب الوجدانى ينال مايستحق من عناية ورعاية من المهتمين بالنقد الادبى حتى يخرج النقد إلى ميدان فسيح ولا يكون مقصوراً على اللفظ والديباجة .

ولعل النقاد المخلصين للفن وهم دعائم الاصلاح يرسمون للنقد خطة قويمة حتى نظفر بخير ألوان الادب وأروع فنونه .

عبد الحميد حسن